القصة العشرون ـ حيِّفي قلبي

دانا ياسين

حملني بكلتا يديه وظلّ يحدق في عينيّ بحبّ ثم ضمني إليه قائلاً:وأخيراً جئت لتنيري حياتنا يا أميرة قلبي،كان مصرّاً في ذلك اليوم أن يكون أول من يحملني ويضمني، وأن يكون كلامه أول ما أسمعه من هذه الدنيا.

هو حنون لدرجة أنه يتحمل صراخي وبكائي المستمر قبل نومي، مع أنّ أمي كانت تقول له إنّها ستتولى أمر نومي ولا داعي لأن يزعج نفسه ببكاء الأطفال؛ لكنه كان يرفض دوماً لأجل أن أنام في حضنه الدافئ.

كان يخاف عليّ من النسمة الباردة، ومن حرّ الصيف وثلج الشتاء. وعندما يراني سعيدة ضاحكة تضحك الحياة في وجهه، وإن رآني حزينة عابسة فلا يدعني حتى يرسم البسمة على ثغري. يشتري الحياة من أجل سعادتي ويهتم بكل تفاصيل حياتي حتى أنه كان يطعمني بيده لقمةً لقمةويلاعبني ويتكلم معي كأنني في مثل عمره ثمّ يضعني في حضنه ويقرأ لي قصص الأطفال فتعلمت القراءة في عمر صغير..أذكر مرة أنني ذهبت إليه باكية لأنني أضعت دميتي في طريقي إليه وكان الوقت متأخراً ومع ذلك فقد أصرّ أن نبحث عنها في الطريق رغم كل محاولات الكبار لمنعه مبررين ذلك بأنها مجرد دمية،بقينا نبحث عنها حتى وجدها وأعطاني إياها قائلاً:

لاشيء يستحق بكاءك فلا تبكي بعد اليوم.

عقد جدي بين قلبي وقلبه حبلاً وثيقاً من العشق لايستطيع حلّـه أحـد، ومـع مـرور الأيام ازداد الحبل متانة أكثر فأكثر.فأصبحت أحب جدي أكثر من نفسي، لا ينقضي يوم إلا وأكلمه فيه، ولايجـري أمـر معـي إلا وأحدثـه عنـه...دارت الأيـام ومضـت الأعوام، وصار دور الحزن في أن يستعرض قوته على السعادة ، فبعث المرض رسـولاً إلى جدي،وما أقسى هذا الرسول! كنت أتوجع لوجع جدي وأتمنى أن أمـرض بـدلاً منه ورغم ابتسامته فقد كنت أستطيع رؤية ألمه من وراء أسـتار عيونـه فيـزداد حـزني لحاله...مارضي المرض أن يذهب إلا مع أخـذ جـدي.العزيز معـه،وكم كـان المـوت أهون عليّ من سماع خبر موت جدي،كانت صفعة القدر كفيلة بقتل الحياة في نفسي، منذ ذلك اليوم لم يعد للدنيا معنى ولا للسعادة مكان في حيـاتي، أصـبح العـالم أسـودَ قاتماً أتخبط فيه بلا هدف ولا غاية، منتظرة الموت بفارغ الصبر أن يأخـذني بعيـداً..إلى حيث أخذ جدي. بقيت على حالي قرابة السنة، سئم فيها مَن حولي مِـن محـاولتهم في إعادة السعادة إليّ، فقد كنت أقول لهم: إني أرى الحياة بعيني جدي فـإن غـاب غابـت معه حياتي.

وفي يوم قالت لي أمي جربي أن تنسيه يوماً فإن عاد إلى ذاكرتك قولي لنفسك رحمه الله، ثم انشغلي بشيء ينسيك حزنك،أعلمُ أنّه لا شيء ينسي المـرء مـن يحـب،لكنّ حياتـك بعد موته ما عادت حياة، ولا حالك حال لذا جربي ماقلته. وفعلاً نفذت ما أملته عليّ أمي إلا أنني فشلت فشلاً ذريعاً،فما إن أردت القراءة حتى أتذكر كيـف كـان يقـرأ لي

القصص، آكل فأتذكر كيف كان يطعمني بيديه،أنظر لنفسي في المرآة فأراه في تقاسيم وجهي، أيأس وأذهب للنوم فأتذكر كيف كنت أنام بحضنه الدافئ، إنه طابع أثره في كياني وفي كل شيء فلا أستطيع نسيانه لحظة. لذا لم يتغير حالي وبقيت على ما أنا عليه إلا أن جاء ذاك اليوم،سمعت في طريقي إلى المنزل جملة من كلام المارّة مع بعضهم،طرقت مسمعي من بين كل الجمل وكأنها موجهة إليّ، مضمون تلك الجملة (ولدٌ صالحٌ يدعو له)مع أنّ تلك الجملة من الحديث الشريف وأحفظها مذ كنت صغيرة إلا أنني شعرت بأنها المرة الأولى التي أسمعها...بقيت أرددها في خلدي مراراً وتكراراً حتى خطرت في بالي فكرة أن جدي لو كان معي فلن يكون راضياً عن حالة الحزن التي أمرّ بها وحياة البؤس التي أعيشها ،كيف يرضى وهو الذي يشتري الدنيا بسعادتي؟

أحسست بأن تلك الجملة التي انتشلتني من الغرق في بحار الحزن وربتت على كتفي، ماهي إلّا رسالةٌ إلهية قد بعثها الله إلى روحي، وحمامةٌ بيضاء تبعث الصبر في أوصالي.

تغيرت الحياة في نظري وتبدلت حالي،فأصبحت مقلدةً جدي في أعماله الطيبة الصالحة،لا أسيء لأحد ولا أُؤذي أحداً،أساعد الجميع وأجتهد في طلب العلم لأقيم مجالس علم أعلم الناس فيها لوجه الله تعالى، أزرع أشجاراً وأعتني بها ببالغ الاهتمام ثم أقطف ثمارها وأعطي كل محتاج فقير، كل شيء أفعله بيدي بكل إتقان وحب..هذا ماعلمتني إياه يا جدي.

صرت أحب الحياة لأجمع فيها حسنات كثيرة من أجل أن أهديك إياها في الجنـة عنـد اللقاء ،أحب الحياة لأحيي ذكراك كأنك لم تمت يوماً.ومع كـل هـذا تبقـى في القلـب غصة إثر الفراق نعالجها بالبكاء في الفينة بعد الفينة.

دمت قريباً رغم بعدك، وحاضراً رغم غيابك، واعلم يا جدي الحبيب بأنك وإن مت فإنك حي في قلبي لم تغب يوماً. »

*****